الفصل السادس
الميتافيزيقا الجديـــدة
بـين الفلسفة والعلم

1) تقسيم الميتافيزيقا.
2) الميتافيزيقا الجديدة.

3) الميتافيزيقا واللغة.
4) فلسفة كوندياك بين ميتافيزيقا التفكير، وميتافيزيقا الإحساس.
5) الميتافيزيقا وعلم النفس.
6) نحو المنهج وفلسفة العلوم
7) تعليق وتقييم

يـذهب كونـدياك إلى عـرض مفهـوم الميتافيزيقـا فـى الفصـل الخـامس مـن كتابـه "المقـال" فيقـول: أنـه كـان خليقـاً بهـذا الكتـاب أن يقود إلى علم بدون عنوان غير أن ذلك لا يمكن إلا بنقد الميتافيزيقا[1]. Metaohysique الذى سعى إلى إبرازها عندما أسس ميتافيزيقا جديدة لم يتوانى عن مهمته فى إتمامها. فكيف استطاع ذلك؟

1) تقسيم الميتافيزيقا:

([1]) Condillac: Essay sur l'origine des connaissances Humaines Jacques Derride, Edition Galilee 1973, P15.

يميز كوندياك بين نوعين من الميتافيزيقا هما ميتافيزيقا الجوهر essence والعلل، Causes وهو يقترح إحلال ميتافيزيقا الظواهر والعلاقات بدلاً منها. وميتافيزيقا الأشياء الخفية (المختبأة) Metaphysiqye du cache ويضع بدلاً منها ميتافيزيقا الوضوح والجلاء Metaphysique de l'ouvert أو ما يمكن تسميته بفينومنولوجيا الأشياء (علم الظاهرات) [1]. Phenomenologie وسوف نرى أن هذا العلم الجديد الذى تم إيجاده لوضع مسميات للأفكار يجد صعوبة جمة فى إيجاد إسم لنفسه، فأى اسم يمكننا إطلاقه على علم عام غير محدود بمكان، يسعى إلى تحليل كامل وشامل متنقلاً بين جميع حقول المعرفة، كما يقودنا إلى أكثر الأفكار بساطة وبديهية ملخصاً قوانين ارتباطها بعضها بالبعض الآخر. وكذلك قوانين اختلاطها وتعقدها وتكرارها وإحلالها محل بعضها البعض، كما يلخص أكثر قوانينها صعوبة وهو قانون ظهورها ذاته[2].

والسؤال هنا، هل يمكن اعتبار هذه النظرية العامة ميتافيزيقا؟

ويبدو أن كوندياك قد صمم فى مطلع كتابه "المقال" على الاحتفاظ بالإسم القديم للميتافيزيقا وهو Paleonymie[3]. ولكن بشرط التمييز بين نوعى الميتافيزيقا، والتقابل أو التضاد بين النوعين

([1]) Ibid.

([2]) Ibid.

([3]) Ibid.

تعنى كلمة باليونيمى عند كوندياك التاريخ الخاص بالأجيال القديمة أو المجتمعات البدائية. باليو Paleo بادئه تعنى قديم، وبصفة إجمالية تعنى الكلمة paleonymie (علم الدراسات القديمة).

يماثل التقابل بين الجوهر الخفى، والظاهرة الواضحة. وبالعودة إلى الظاهرة نوضح النشأة، ونعيد رسم الأصل والمنبع، ونصل إليه مكررين ومحللين[1]. وقد يداخلنا شعور بأن أفضل ميتافيزيقا هى علم الأصول والبدايات الحقيقية (وهى تعلن عن لغة الحسابات والرياضيات) "أنا أبدأ من البداية" ..... "لهذا السبب أبدأ من حيث لم يبدأ أحد من قبلى"[2]. ولهذا يجب أن تقدم كأول فلسفة، لكن الأمر ليس كذلك ألبتة، فعلم البدايات وميتافيزيقا البساطة والخلط والظهور، هذه الفلسفة الجديدة موقعها بالضرورة فى المرتبة الثانية، و هذا هو وضعها.

لقد ظل كوندياك لفترة حريصاً ومتحفظاً خاصة بعد ظهور كتابه "المقال" بشأن استخدام كلمة "ميتافيزيقا". وكان مرجع حرصه هو الخوف والرغبة فى تجنب شباك وفخ Philosophia prote [3]. وهكذا فلن تصبح ميتافيزيقا كوندياك فلسفة أولى، أو علماً للأهوت، لقد كان عليه أن يفعل ما لم يفعله. ديكارت، أن ينفصل عن تقاليد أرسطو يقول كوندياك: "سوف يبدو لك غريباً بعض الشيء أن أنسى سرد تاريخ الميتافيزيقا، غير أننى لا أعرف معنى هذه الكلمة، وقد حرص أرسطو معتقداً أنه يخلق علماً[4]. على جمع كل الأفكار المجردة والعامة مثل الكون، والمادة والمبادئ، والعلل، والعلاقات، وأفكار أخرى مشابهة درسها جميعاً فى دراسة تمهيدية أسماها "الحكمة الأولى

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Ibid.
(4) Ibid.

أو الفلسفة الأولى وعلم اللاهوت". وقد تبعه ثيوفراسطس وهو أحد كبار الأرسطين فقد أعطى لهذه الأفكار المجردة اسم ميتافيزيقا[1].

وها هى ذى إذن الميتافيزيقا: هى علم يحاول معالجة كل شيء بصفة عامة، قبل ملاحظة أى شئ بصفة خاصة، أى يتحدث فى كل شيء، قبل أن يتعلم شيئاً على الإطلاق، ومن ثم مفهوم علم لا جدوى منه، فلا موضوع فيه، ولا غاية يطمح إليها، وبما أننا نتدرج من الأفكار الخاصة إلى المفاهيم العامة، فمن ثم لا تصلح أن تكون موضوع أول للعلوم[2]. ولن تكون الميتافيزيقا الجديدة فى المرتبة الثانية إلا بالعودة إلى المصدر الحقيقى، وإلى الظهور الفعلى للمبدأ، ومن ثم ستبدو كعلم تجريبى غير أن ما أخذه كوندياك على فلسفة أرسطو الأولى هو هذا التجريب المقنع الذى يأخذ العموميات المشتقة كمقدمات، والنتائج كبذور فلسفة من المرتبة الثانية، وتجريب غير مسئول[3].

2) الميتافيزيقا الجديدة:

يرى كوندياك أنه يقلب الأمور من مواضعها، فإن هذه الميتافيزيقا الجديدة ستتمكن بتقدمها كفلسفة من المرتبة الثانية من إعادة المبادئ والأصول الأولى التى تنطلق من حالات فردية حقيقية وصولاً إلى العموميات، ولن تحتفظ باسم ميتافيزيقا هذا إلا تماثلاً وتشابهاً

---

(1) Ibid p 17.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

"يترتب على هذا أن التماثل يشبه رمزه الأساسى، تماثل العرف الخاص بأرسطو، ومن هنا يظهر لنا أساس مشكلة لا تنتهى، وسوف يمكن إطلاق اسم تحليل أو طريقة تحليلية عليها" [1].

وبتتبع أصول المعارف الحقيقية تبدأ مرحلة من التحليل يمكنها هدم وتفكيك الفلسفة الأولى[2]. (وهذا يعنى أن هذه الميتافيزيقا الجديدة تحل محل الميتافيزيقا الأولى وترث اسمها (نجد كلمتين أساسيتين فى كتاب كوندياك وهما: العودة إلى، والإحلال محل) ونظراً لضرورة تحليل الأشياء للارتفاع والوصول إلى المعارف الحقيقية يجب أن ننظم أفكارنا بتوزيعها فى مراتب مختلفة، مطلقين على كل منها اسماً خاصا بها يسهل التعرف به عليها، وسوف تقودنا التحليلات من إكتشاف لآخر إذا أحسن عملها؛ لأنها توضح لنا طريق النجاح وتقودنا إليه. فطابع التحليل هو استخدام أقصر الطرق وأبسطها فى الطريق[3].

لقد حاول كوندياك أن يقدم لنا رؤية جديدة حول الميتافيزيقا، لكن هذه الرؤية بطبيعة الحال لم تكن مثل نظرة الميتافيزيقى الأول، أقصد أرسطو. ومع هذا وجدناه يصف التحليل بأنه ليس علماً منفصلاً عن باقى العلوم، فهو جزء منها كلها، وهو الطريقة المثلى وأساس العلم، ولهذا السبب كان كوندياك يصف التحليل بأنه علم لكن هذا لا يعنى أن نخلط بين فكرة التحليل عند كوندياك وفكرة المماثلة عند أرسطو، لا شك أن رؤية كوندياك حول هذه النقطة بالذات كانت لها أهميتها الخاصة، فالعصر الذى عاشه هو عصر التحليل، سواء أكان

([1]) Ibid P18 .

([2]) Ibid.

([3]) Ibid.

هذا التحليل ينصب على الميتافيزيقا، كما كان الحال عند ديكارت، أم على المنهج العلمى وتصوراته كما نألف ذلك عند فرنسيس بيكون أم على تطبيقات هذا المنهج العلمى الجديد قبل إبعاده فى الفلسفة الطبيعية عند نيوتن.

3) الميتافيزيقا واللغة:

وسوف يتطور الأمر بين الميتافيزيقا واللغة حتى يصل إلى لغة الحسابات والأرقام وهى لغة متعارف ومتفق عليها، كما أنها تحكمية وقطعية غير أن أمر القواعد الخاصة بها سوف يسند إلى الميتافيزيقا، لا إلى تقنيات علماء الجبر، وهذا ما سوف يبرز حينما يتعلق الأمر باستخدام اللغة وقواعدها[1].

إننى أتوقف طويلاً أمام مسائل لم يتخيل علماء الرياضيات أن يعالجوا مثلها؛ لأن مثل هذه المسائل تتبع الميتافيزيقا، وعلماء الرياضيات ليسوا ميتافيزيقيين، فهم يعرفون أن الجبر ليس إلا اللغة، وأن هذه اللغة ما زالت بدون قواعد، وأن الميتافيزيقا وحدها. هى التى يمكن أن تمنحها وتوجد لها القواعد[2].

ولكن من ناحية أخرى، إذا كان على الميتافيزيقا الصحيحة أن تعبر عن نفسها من خلال قواعد صناعية ومختلفة، ألا تحاول بذل التشبه وحذو حذو ميتافيزيقا أخرى صحيحة وأكثر طبيعية لسبقها كل اللغات[3].؟

([1]) Condillac. de L'art de Penser. P34.

([2]) Ibid.

([3]) Ibid.

إنهـــا محاولـــة اســـتخدام اللغـــة لإصـــلاح مســـاوئ لغـــة، والعودة بالشيء المختلق إلى الطبيعة والتلقائية، وهنا تكمن فائدة الجبر الـذى سـيجعلنا نـتكلم كالطبيعـة، وسـوف يجعلنـا نتخيـل أننـا قمنـا باكتشاف كبير، فعلى لغة الرياضيات أن تعيد بناء الركيزة اللغوية الطبيعية للميتافيزيقا، فالميتافيزيقا الصحيحة طبيعية وخرساء: إنها الطبيعة.

الميتافيزيقا الصحيحة بدأت قبل اللغات، وإليها تدين اللغات بكل وأحسن ما لديها. غير أن هذه الميتافيزيقا كانت غريزة أكثر منها علماً، كانت الطبيعة تقود البشر بدون أن يعلموا، ولم تصبح علماً إلا عندما أصبحت غير صحيحة[1].

فالعلم يجب أن يشفى بكل ما فى هذه الكلمة من معان، العلم يجب أن يشفى من العلم، من هنا تظهر الثنائية، سوف يكون هناك نوعان من الميتافيزيقا فى داخل هذا العلم الجديد[2].

4) فلسفة كوندياك بين ميتافيزيقا التفكير، وميتافيزيقا الإحساس:

وقد ذهب كوندياك إلى محاولة تقسيم الميتافيزيقا الجديدة إلى نوعين فالميتافيزيقا التى تصورها والتى تنصب على الذهن الإنسانى، إنما توجد حين ترفض معرفة الجوهر والعلل، وحين تنصب على تجربة

---

(1) Ibid.

(2) Ibid.

الأفكار، وهنا تصبح الميتافيزيقا الواحدة نوعين[1]. والتفرقة بينهما لا تعنى أن تكون هذه صحيحة وتلك رديئة، ولكن المقصود بالميتافيزيقا تلك تمثل أصلاً سابقاً على الوجود اللغوى، أى ميتافيزيقا الغريزةinstinct والإحساس sentiment أو الميتافيزيقا الخاصة بالتفكير reflexion واللغة الجديدة nonveau langage والفنية اللغوية العالية l'extreme elaboration linguistique .

ويبين لنا كتاب كوندياك "فن الاستدلال" de l'art de raisonner هذا النظام المزدوج، كما يوضح القاعدة التى تقرب ميتافيزيقا الغريزة الطبيعية من الميتافيزيقا الخاصة بالعلم الشافى[2]. فالأخيرة تنمى الأولى وتسمو بها، ولا تدحض من شأنها أو تنحدر بها، وعليها كذلك أن تقسم الصلة بين اللغة التى تمثلها هى، وتلك المرحلة السابقة على كل اللغات، وتتولى قيمتا الإحساس والتفكير صياغة هذه الصلة حيث نكتشف من صياغتها أن الثانية تسبق الأولى[3].

وتنقسم الميتافيزيقاً إلى اتجاهين حينما يكون موضعها الوحيد هو العقل الإنسانى، وهذان الاتجاهان هما: "اتجاه خاص بالتفكير وآخر خاص بالأحاسيس، يختص الإتجاه الأول بالنظر إلى قوانا كل على حدة ويتتبع مصادرها، ويملى ترتيباً على القواعد التى تحكمها، والتى لا يمكن الوصول إليها إلا بالدراسة. أما النوع الثانى فيحس بقوانا، ويخضع لحركتها، وهو يتبع مبادئ نجهلها نجدها بداخلنا، ولا نعرف

([1]) Ibid P19.

([2]) Ibid (Science qui guerit).

([3]) Ibid.

كيف ولجت إلى أعماقنا؛ لأن هناك ظروف قد جعلته يبدو طبيعياً تلقائياً وهو نصيب وقدر النفوس العادلة، أو قل هو الغريزة إن أردت"[1].

وميتافيزيقا التفكير Metaphysique de reflexion ليست إلا نظرية تنمو وتتطور فى أصولها وآثارها كل ما تمارسه ميتافيزيقا الإحساس، فهذه الأخيرة مثلاً تصيغ اللغات أما الأولى فتشرع نظامها إحداهما تكون وتشكل الخطباء والشعراء بينما تعطى الأخرى نظرية اللباقة والشعر[2].

وسوف نلاحظ أن هاتين الميتافيزيقتان تتعارضان، ولكنهما فى الوقت نفسه تتعاقبان وتتموان معاً كالشق النظرى والشق التطبيقى اللازم له، ومن ثم يعد الطابع العملى هو السمة الأساسية فى هذه الميتافيزيقا الجديدة والناقدة. غير أنها أميل فى الشبه من فلسفة التطبيق العملى Praxis[3]. منها إلى ميتافيزيقا العمل أو الفعل Fait [4]. والنتيجة الأولى طبقاً لما جاء فى كتاب كوندياك "المقال" عن ميتافيزيقا التفكير هى: لأنها ليست علماً من المرتبة الأولى، وليست طريقة مسبقة كذلك، فهذه النظرية العامة تأتى بعد وفى المرحلة اللاحقة حتى تتخلص النتائج أو تستشفها، وتبين تطور أو كيفة اكتساب معرفة ما (وذلك بإيضاح كيفية نجاحنا فى عمل الشيء حتى يمكننا تكراره) وهى تتبع تاريخاً ما خاصاً بالعلم، بصدد الفعل كما بصدد القانون

([1]) Essai.

([2]) Ibid P 20.

([3]) Philosophie de la Praxis.

([4]) Metaphysique du Fait.

نجدها تفترض أن الواقعة العلمية مثلها مثل الفكرة العامة idee generale تبنى بدءاً من الأفكار الخاصة des idees particuliere .

والعالم generale مثله مثل النظرية theorique له أصل يتولد عنه، وإخضاع كل منهما للتحليل هو العودة إلى الظروف العملية للنشأة وطريقة التكوين[1].

ولا يقتصر الأمر هنا على تحليل المركب إلى عناصره الأولى، أو الفصل بين مكونات وجزئيات كتلة، ولكن الأمر يشمل أيضاً وفى نفس الوقت يبان سلسلة العمليات النفسية التى تحدث بدءاً من النشأة[2].

5) الميتافيزيقا وعلم النفس:

انصب اهتمام كوندياك على تحليل سلسلة العمليات النفسية فى شأنها فما هو موقفه من دراسة علم النفس فى ضوء ما جاء بكتابه "المقال"؟ إنه يرى أن كلمة علم نفس عملى مثلها مثل كلمة ميتافيزيقا لم تستعمل بعد بالقدر الكافى، ولم يألف الناس استعمالها فى موضعها فهذه الميتافيزيقا ليست العلم الأول؛ لأنه من غير المعقول أن نحلل أفكارنا تحليلاً جيداً دون أن نعرف ما هى هذه الأفكار، وكيف تكونت؟ يجب إذن وقبل كل شيء معرفة أصولها، وكيفية تكوينها غير أن العلم الذى يهتم بهذا الأمر لا اسم له حتى الآن لحداثته وسوف أطلق عليه "علم النفس" إذا ما رأيت عملاً قيماً فى هذه الصدد[3].

6) نحو المنهج وفلسفة العلوم.

---

(1) Ibid.

(2) Ibid P 21.

(3) Ibid P 21.

وقد دفع اهتمام كوندياك بالتطور إلى الاهتمام بالظروف والإمكانيات التاريخية المحيطة بهذا التصور فهو يحلل الظروف والمواقف الخاصة إنطلاقاً من القانون العام للتاريخ[1].

وإذا كانت الفلسفة والميتافيزيقا النظرية والطريقة العامة تاريخيين فى المقام الأول، فذلك يرجع إلى انها تعقب ممارسة وتطبيق المعرفة، نجاح أو إكتشاف علم، غير أنها دائما ينقصها معرفة أو فعل (عمل)، ومن ثم كانت الطريقة العامة التى يقترحها كوندياك، ومفهومه عن المنهج، وتعميمه للقاعدة لا يمكنهم الاستقرار إلا بعد اكتشاف أو عمل عبقرى رائع ينقل اكتشاف عملى.

وبهذه الصورة السابقة نجد كونديك يتجه إلى المنهج العلمى فى إطار روح العصر العلمية متأثراً فى ذلك بفكر كل من لوك ونيوتن، وقد استفاد منهما فى تعميمه لمفهوم المنهج يقول: ".... يبدو لى أن المنهج الذى يقود إلى حقيقة يمكنه أن يقود إلى أخرى، وأن أفضل هذه الحقائق تتمتع بهذه الأفضلية بالنسبة لكل العلوم. لذا فإنه يكفى التفكير فى الاكتشافات التى تمت بالفعل للوصول إلى اكتشافات جديدة"[2].

لقد اتفق كوندياك مع دالمبير على أن طريق المنهج والحقيقة كان ممهداً أمام فلاسفة وعلماء العصر. يقول الأخير: "لقد استطاع لوك بنقده للأفكار الفطرية، وبوصفه لأسباب النشوء، وبوصله الأفكار

---

(1) Ibid.

(2) Condillac. de L'art de Raisonner. P20.

بعضها ببعض أن يخلق ميتافيزيقا كما خلق نيوتن الفيزياء"[1]. ويفترض مضمون المنهج مفهومه أن الطريق كان ممهداً[2].

وهكذا فبدءاً من مبدأ ملاحظة الطبيعة، ينفتح طريق الحقيقة على مصراعيه، وكلما تقدمنا أكثر ازداد الطريق تمهيداً، ويعد نيوتن بحق أكثرهم علماً بهذا الطريق الذي ترسمه عدة حقائق موصولة بعضها ببعض، وأساس عملية التماثل يفترض وجود الأمر ذاته فى علوم العقل.

وكما أن وجود الكتاب شعراً ونثراً قدجاء متقدماً على وجود القواعد، وعلم العروض زمنياً، نجد أن فن التفكير لم يكن يعرف إلا بعد وجود عقلاء وحكماء فكروا فى مختلف المجالات.

نستخلص من ذلك أن هذا الفن قد حظى بأفضل تقدم له فى القرنين السابع والثامن عشر، فالمنهج الحقيقى يرجع إلى هذين القرنين، وقد عرف أولاً فى العلوم حيث تتكون الأفكار بطريقة طبيعية، وتتحدد بدون صعوبة، وتعد الرياضيات مثالاً على ذلك[3].

لقد كان السبب فى عدم وصول التتار إلى فنون النظم وعلم العروض هو افتقارهم إلى وجود شعراء على مستوى جيد، والحال كذلك فى أنواع المنطق التى ظهرت قبل القرن السابع عشر.

لم يكن يعرف هنا إلا طريقة واحدة لتعليم التفكير ألا وهى رؤية أصول العلوم وطرق تطورها، فكان الأمر يتطلب إيجاد طرق لعمل

([1]) Condillac. de L'art de Raisonner. P20.

([2]) Ibid P20.

([3]) Ibid.

اكتشافات جديدة، إنطلاقاً من الاكتشافات الموجودة، وفى الوقت ذاته تجنب كل الطرق التى من شأنها الإيقاع بنا فى الخطأ[1].

ولقد كان المنهاج معروفاً فى البداية عن طريق العلوم، وكان الفيلسوف هو الذى يفتح لنفسه طريقاً، وهو الذى يكرر مع شيء من التعميم هذا التصدع السابق الذى ينقل ويتسع منطوره عند من يليه، وقد افتتح لوك الطريق وتلاه بيكون ونيوتن، ولقد بدأ كوندياك الطريق مرة أخرى بعد لوك[2].

لقد كان بيكون مجهولاً من الفلاسفة والعلماء قبل لوك لقصور عبقريتهم ولظروفهم التاريخية، فلم يعرفوه حق المعرفة[3]. كما لم يعترفوا به، وكان يجب عليهم أن يتدارسوه، وفى الوقت الذى أسف فيه بيكون لما انطوى عليه العقل من أفكار باليه واضمحلال، محاولاً إحلال أفكار جديدة محلها نجده مقتنعاً بأن لا وجود لمعرفة فى ذهن الإنسان إلا بالملاحظة، وبذلك فتح لنفسه طريقاً لم يتطرق إليه أحد من قبل. ولقد استطاع لوك بلوغ هدفه فى المعرفة بأخذه تطور العلوم فى زمنه فى الاعتبار، وبتركيزه على فكرة الملاحظة والتجربة، فله يرجع السبق فى الحديث عن الإدراك والفهم الإنسانى الذى لم يبحثه من سبقوه[4].

لنترك جانباً الانتقادات التى وجهها كوندياك للوك، ولنرى فى لوك مثلاً أعلى ما دام كوندياك يحثنا على ذلك، ولكن كيف استطاع

---

(1) Ibid P 22.
(2) Ibid.
(3) Ibid.
(4) Ibid P23.

لـوك شـق طريقـة مكتفيـاً بتطـوير وتكـرار هـذا الشـرح أو الانقسـام السـابق؟ هـذا السـؤال يعـد نموذجـاً لمسـألة أكثـر عموميـة يمكـن إعـادة طرحها بتطبيقها على صفحات كتاب كوندياك "المقال"، وتعد محاولة الإجابة عليه نوعاً من الولوج فى تفسير شامل[1].

وإذا كان لوك قد شق طريقاً بإعادة العملية، فمما لا شك فيه أنه قد طبق قانوناً عاماً على مجال خاص. والأفضل من كل ذلك هو اكتشافه وتطويره لهذه المجال الخاص بالإدراك أو الفهم الإنسانى.

وقـد كانـت عمليـة النقـل والتطبيـق التـى شـرع فيهـا منتجـة[2] وباستعماله للتشابه اكتشف المجهول، وأكثر صيغ هذا المنطق عمومية هـو الاخـتراع بالتشـابه، فمـا ينطبـق علـى التشـابه ينطبـق علـى التحليـل (والتشابه هنا قد يكون عاماً وقد يكون تشابهاً رياضياً نسبياً) فنحن نكـون أشـياء جديـدة سـواء بالنقـل النسـبى، أو يتحليـل معطيـات؛ ولهـذا السـبب فـإن تقـدم العلـم وثـراء المعرفـة يمكنـه أن يتـأتى كمـا يقـول كوندياك دائماً عن طريق اقتراحات متشابهة، وأحكام تحليلية[3].

فى ظل هذه الظروف فإن صلة كوندياك بلوك تماثل صلة لوك بالسابقين عليه[4].

وهكـذا فقـد أكمـل كونـدياك طريـق علـم الإدارك والفهـم البشرى، كما بدأه لوك، وقام بتعديله وتكراره مرة ثانية، وأضاف إليه

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Ibid.
(4) Ibid.

ما يتعلق بمشكلة اللغة الحيوية. ذلك يعنى أنه قد أرسى أسسه أخيراً وللمرة الأولى[1].

ولقد احتفظ كتاب "مقال فى أصل المعارف الإنسانية" بشيء محدد بدقة، وهو ليس العقل الإنسانى، ولا عمليات النفس التى يمكن إرجاعها إلى الإرادة، أو إلى العقل على حد سواء. إن موضوع هذا الكتاب هو رؤية العقل وعمليات النفس فى ضوء صلتهم بالإدراك.

تعليق وتقييم:

رأينا مما سبق كيف وضع كوندياك نوعين من الميتافيزيقا: هما ميتافيزيقا الظواهر والعلاقات، وميتافيزيقا الوضوح والجلاء، أو فينومنولوجيا الأشياء لكى يحلا محل نوعى الميتافيزيقا القديمة لأرسطو، وهى ميتافيزيقا الجوهر والعلل، وميتافيزيقا الأشياء الخافية.

ولكن الصعوبة التى واجهت كوندياك وهو يؤسس ميتافيزيقاه هى افتقارها إلى وجود اسم أو عنوان، وقد أتت هذه الصعوبة من شيئين هما: أولاً: أنها علم عام غير محدد بمكان، كما تسعى إلى تحليل كامل وشامل متنقلة بين جميع حقول المعرفة، ثانياً: أنها تقودنا إلى أكثر الأفكار بساطة وبديهية وتلخص قوانين ارتباطها بعضها بالبعض الآخر، وكذلك قوانين اختلاطها، وتعقدها، وتكرارها، وإحلالها محل بعضها البعض.

وتعد محاولة احتفاظ كوندياك باسم الميتافيزيقا وهو Paleonymie شرطاً للتمييز بين نوعى الميتافيزيقا، والتقابل أو التضاد بينهم الذى يماثل التقابل بين الجوهر الخفى، والظاهرة الواضحة.

([1]) Ibid.

ولكن هل كانت بداية كوندياك مع الفلسفة هى البداية الحقيقية فى لغة الحسابات والرياضيات؟ لقد كان كوندياك قلقاً بعد ظهور كتابه "المقال" لحرصه الشديد على استعمال كلمة الميتافيزيقا، ومن ثم فقد بدت ميتافيزيقاه بعيده عن الفلسفة الأولى، أو علم اللاهوت فانفصل كوندياك عن أرسطو بل ونقده.

لقد كانت الميتافيزيقا الجديدة عنده هى العودة إلى المصدر الحقيقى. وإلى الظهور الفعلى للمبدأ، وهى على هذا النحو تبدو تجريبية، ولكنها نوع من التجربة التى تختلف عن فلسفة أرسطو.

فما هى خصائص الفلسفة الجديدة التى أسسها كوندياك؟

خصائص الميتافيزيقا الجديدة هى على النحو التالى:

1- هى فلسفة من المرتبة الثانية، تحاول إعادة المبادئ والأصول الأولى التى تنطلق من حالات فردية حقيقية وتصل إلى العموميات.

2- لا تحتفظ باسم ميتافيزيقا إلا تشابهاً.

3- تتسم بالطابع التحليلى الذى يستخدم أقصر الطرق وأبسطها لبلوغ المعرفة.

4- تهدم الفلسفة الأولى حين تتبع أصول المعارف الحقيقية، وتهتم بالتحليل.

5- تهدم الفلسفة الأولى وترث اسمها، وتحل محلها.

6- تتصل بجميع العلوم لارتباطها بالتحليل الذى هو جزء من العلوم جميعاً وهو أساس الحقيقة وأصل العلم.

7- تتصل عن كثب باللغة، كما تستخدم الإشارات والرموز، ومن ثم تصبح الميتافيزيقا الردئية هى الاستخدام السيء للغة مصحوباً بفلسفة غير جيدة.

8- تتطور من اللغة والإشارات والرموز حتى تصل إلى لغة الحسابات والأرقام، وهى لغة متعارف ومتفق عليها، وهى تحكمية وقطعية.

9- تستند إلى لغة الحسابات والأرقام التى سوف تستعملها الميتافيزيقا الجديدة المستندة إلى الميتافيزيقا لا إلى تصنيفات علماء الجبر.

10- تعتمد على لغة الجبر- وهى فى عرف الميتافيزيقيين - لغة وحقيقة يؤكد الفلاسفة لا علماء الرياضيات.

11- تستند إلى الجبر لأهميته البالغة فى إصلاح مساوئ لغة والعودة بالشيء إلى الطبيعة والتلقائية.

12- الميتافيزيقا الصحيحة طبيعة خرساء، وقد بدأت قبل اللغات ولها تدين اللغات بكل وأحسن ما لديها.

13- الميتافيزيقا الصحيحة غريزة وليست علماً، ولم تصبح علماً إلا عندما أصبحت غير صحيحة.

14- ترفض معرفة الجوهر والعلل وتنصب على تجربة الأفكار.

15- تزدوج بين ميتافيزيقا الغريزة (الطبيعة) والإحساس والعلم الشافى، فالأخير ينمى الأولى ويسمو بها، ولا يحط من شأنها، وعلى العلم الشافى أن يقيم الصلة بين اللغة التى تمثلها، والمرحلة السابقة على كل اللغات.

تقسيم الميتافيزيقا الجديدة الصحيحة

الغريزة (الطبيعة) instinct العلم الشافى Science ينمى الغريزة عن طريق الصلة بين اللغة التى تمثلها الغريزة، والمرحلة السابقة على كل اللغات

يسبق الإحساس التفكير

وتصوغ الصلة الإحساس والتفكير معاً

موضوع الميتافيزيقا الجديدة

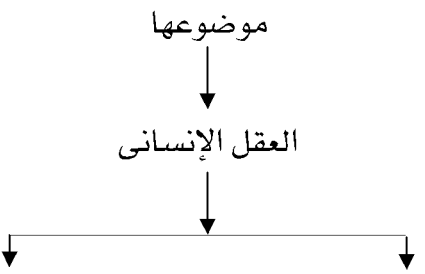

ميتافيزيقا التفكير (reflexion)

1- النظر إلى قوانا كل على حدة تتبع مصادرها وترتيبها.

2- معرفة القواعد التى تحكمها عن طريق الدراسة فهى تنمى وتطور ما تمارسه ميتافيزيقا الإحساس .

3- تشرح نظام اللغات.

4- تعطى نظرية المعرفة والعلم

ميتافيزيقا الإحساس (الغريزة) sentiment instinct

1- تحس بقوانا وتخضع لحركتها.

2- تتبع مبادئ تحليلها .

3- تصيغ اللغات.

4- تكون وتشكل الخطباء والشعراء .

وسوف نشرح فيما سيأتى أهم خصائص الميتافيزيقا الجديدة المزدوجة المكونة من ميتافيزيقا التفكير، وميتافيزيقا الإحساس (الغريزة).

خصائص الميتافيزيقا الجديدة:

1- تتعارضان ولكنهما فى نفس الوقت تتعاقبان وتنموان معاً.

2- تمثلان الشق النظرى، والشق التطبيقى اللازم له.

3- تتميز الميتافيزيقا الجديدة بالطابع العملى.

4- ميتافيزيقا جديدة ونقدية.

5- تشيد فلسفة التطبيق العملى Praxis أكثر من ميتافيزيقا العمل أو الفعل Fait

6- تهتم بعلم النفس لمعرفة كيفية تكوّن أفكارنا.

7- تهتم بالتطور وبدراسة القانون العام للتاريخ.

وهكذا يتضح لنا موقف كوندياك أو مؤسس المذهب الحسى فى فرنسا، فتكشف فلسفته العلمية النقاب عن بعد نظرى، غريزى فيها يرجع إلى تنازع الفيلسوف ذاته، وانقسامه بين إتجاهين متعارضين للفكر. فالاتجاه النظرى الفكرى هو البعد الذى يكمن لا شعورياً داخل أعماق فكره ، وهو ما تولد عن أثر المناخ الفكرى النظرى الذى كان يميز مجتمع فرنسا بلده بتأثير رينيه ديكارت الذى أعلى من شأن العقل وقدراته، وأبرز دوره فى السيطرة على الطبيعة، فكان من المستحيل على كوندياك وقد نبت فى نفس المناخ أن يستقل بفكره بعيداً عن تيار الفكر النظرى الذى انبثق من فرنسا، وترك آثاره الكبيرة على جميع أرجاء القارة. هذا الطابع النظرى كان لابد وأن يبدو فى فلسفة حسية كفلسفة كوندياك، ولو بصورة مستترة أو خفية، فنسق كوندياك الحسى يطالعنا من آن لآخر بثمة أفكار عن التحليل، وأخرى عن الشكلية فى الميتافيزيقا والتى ربما يكون كوندياك قد تأثر فيها بفلسفة ديكارت فى محاولاته الميتافيزيقية لإثبات وجود نفسه والعالم والله، فهذه المراحل الثلاث نجدها- شكلاً عند كوندياك تحمل آثار فكر ديكارت، وإن اختلفت من حيث الموضوع، هذا من

ناحية، ومن ناحية أخرى نجده يتأثر ببسكال فيما ذكره عن المعرفة الغريزية وكانت الغريزة عند بسكال هى مصدر من مصادر المعرفة باعتبارها صادرة من القلب أو الوجدان، فيأمل فى أن تكون السبيل إلى الحقيقة، ولكن بسكال يعود هنا، وبعد أن يذكر المعرفة بالغريزة إلى القول بعدم كفايتها؛ لأن الطبيعة لم تمنح الإنسان إلا القليل منها، ويركن فى تحصيل معارفه الصحيحة إلى القول بعدم كفايتها؛ لأن الطبيعة لم تمنح الإنسان إلا القليل منها، ويركن فى تحصيل معارفة الصحيحة إلى الاستدلال العقلى، وإن كان يعطى لرجال الدين والمخلصين نصيب الأسد فى المعرفة عن طريق الغريزة والإحساس. وإذا كان كوندياك يرجع إلى فكرة المعرفة عن طريق الغريزة والإحساس (الطبيعة). فإن هذه المعرفة تنجم عن إيمانه بالإحساسات وبدورها كمصدر للمعرفة، وهو هنا يختلف عن بسكال الذى يرجح صحة المعرفة الغريزة فى بعدها عن الإستدلال العقلى، واقتصارها على المؤمنين الخالصين الذين يصلون إلى المعرفة عن طريق شعور القلب الذى بدونه يصبح الإيمان إنسانى ولا جدوى منه فى الخلاص[1]. فى حين يضطلع كوندياك بمهمة تأسيس فلسفة جديدة وصحيحة أو ميتافيزيقا تحل محل الفلسفة الأولى واللاهوت، وهى تعتمد على عنصرى الإحساس (الغريزة) والتفكير العقلى، وهنا فالإحساس الغريزى لا يؤدى وظيفته المعرفية على نفس مستوى الأهمية بمفرده بدون تآذر الفكر النظرى وميتافيزيقا التفكير السابقة الذكر، ومن جهة أخرى فإن كوندياك يذكر معرفة الغريزة باعتبارها ميتافيزيقا الإحساس، وهى فى حد ذاتها وبتآذرها مع ميتافيزيقا التفكير تكوّن اللغة الأولى للفلسفة

([1]) Pascal. Blaise: Les Penses p 171.

الجديدة الصحيحة الناقدة لفلسفة أرسطو الأولى، وهى فلسفة تستخدم التحليل واللغة والرمز والإشارة كما تتجه إلى مباحث العلوم، وتلقى الضوء على الملاحظة والتجربة فتنشأ أفكارها فى أحضان علم وعلماء القرنين السابع والثامن عشر، فى حين أن فكرة المعرفة الغريزية التى عرّفها بسكال بالمعرفة القلبية الحدسية هى نوع من المعارف التى يذكرها فى فلسفته لكى يبرز تناقض الإنسان بين المعرفة المستلهمة، ومعرفة الاستدلال العقلي، ولكى يبين مقدار ما يعانيه المرء من نقص هذه المعارف، وإن كان فى الوقت ذاته يجمع كذلك بينها، وبين المعرفة العقلية على نحو ما فعل كوندياك وذلك لكى يؤسس المعرفة.

وإن كان بسكال قد اعتبر أن العقل والقلب، أو الغريز ة هما علامتان على طبيعتين متناقصتين وأن ذلك يمثل خطورة كبيرة، ويهدد يقين الفلسفة؛ لأنه يجعل الإنسان منطوياً على صفتين متنافضتين هما: الضعف والقدرة، أو القوة فقد اعترف بأهميتهما معاً فى بناء المعرفة برمتها، فهو يقول أن المعرفة العقلية تستخدم التحليل والتركيب، وترجع إلى الجبر ومعادلاته، وتدفع إلى التسليم بوجود موضوعات لا تحتمل التجزأة، فى حين أن الثانية أى معرفة الغريزة تبرهن على وجود المكان والزمان والعدد والكمية اللامتناهية فى الصغر أو الكبر، أو للبرهنة على وجود عددين مربعين أحدهما ضعف الآخر، وهى ضرب من الإحساس أو الشعور القلبى، ومعرفة بالمسائل الصعبة والبديهية التى لا تستطيع المعرفة العقلية بلوغها، وهنا فإنه يرى أهمية الغريزة وضرورتها فى استمرار تقدم العلم واضطراد قضاياه.

وعلى هذا النحو، فقد تختلف الوسائل بعض الشيء، لكن تبقى الأهداف متفقة فى النهاية على الجمع بين الفكر والعمل، أو

ميتافيزيقا الفكر وميتافيزيقا الإحساس (الغريزة). ويبدو أن هذا الجمع كان سمة مميزة لفلاسفة القرنين السابع والثامن عشر لما حدث فيهما من تطور فكرة وثورة علمية. فكان على الفلاسفة والعلماء لكى يقبضوا بثبات على دفة المعرفة من أن يجمعوا بين النظرية والعمل، حتى يحافظوا على مذاهبهم ويسايرون اللهثات السريعة للتقدم العلمى.

وإذا كان كوندياك قد تأثر بديكارت فى بعض مواضع فكره التى لم يستطع الفكاك منها رغم سيطرة نزعته الحسية، كما تأثر ببسكال فى بعض مواضع فكره كذلك، خاصة ما يتعلق منها بالمعرفة والاتجاه العلمى. فإننا نجده يكتب كذلك فى الانتباه، ويضع لفظ الإنتباه Attention باعتباره الإحساس النشيط. كما يعرفه فى علم النفس. ويرى فى "رسالة فى الإحساسات" و "المقال" أنه الإحساس النشيط والفعال الذى يربط بين الإحساسات. أفلا نرى هنا ثمة وجه شبه ولو فى الوظيفة أو الغرض بين الانتباه عند كوندياك بما يتسم به من طابع حسى، والانتباه المالبرانشي الذى يبدو فى صورة معنوية روحية.

إن الانتباه عند كوندياك يعنى اللبنة الأساسية فى بناء المعرفة؛ لأن النفس تحول الإحساسات بنشاطاتها المختلفة عن طريق هذا الانتباه، ومن ثم فهو يسهم بفاعلية فى عملية الربط بين المعارف والقوى. يقول كوندياك فى "المقال" عندما أقول بأن الحواس هى مصدر جميع معارفنا فلا يجب أن ننسى أن ذلك يكون بقدر ما نجتذبها من الذهن بالتفكير، ونستخرجها من الأفكار الواضحة الجلية، فيحاول كل من الذاكرة والخيال تنمية الانتباه النشيط، أى يحولا الأشياء الخارجية دون تبعية النفس، وفى النهاية يصبح الإنتباه هو الذى يوجد الصلة بين الأفكار، وهنا يخلط كوندياك بين الإحساسات، والعنصر العقلى

الذى يبقى ثابتاً فى بوتقة التحليل، وهنا يلعب الإنتباه دوراً فى إيجاد الصلة بين الأفكار أثناء عملية المعرفة فيصح القول عنه: أنه يبنى المعرفة ويؤسسها. فى حين أن الانتباه المالبرانشى هو سبيل النفس للحصول على المعرفة بطريق معنوى روحى. وكما أنه يختلف عن الانتباه الكونديلاكى الحسى، فهو يختلف كذلك عن الحدس الديكارتى Intuition العقلى متخذاً صورة صوفية تفقد فيه النفس إيجابيتها، وتصبح فى موقف سلبى تتوجه بنية خالصة وفى انتباه تام يعتبر كصلاة لها تتوجه بها إلى خالقها ليمنحها المعرفة التى تحصل مباشرة بإشراق حضورى لا تجد فيه النفس أى صور للاستدلال ولا للمنطق إنما ترى من خلاله المعانى التى تعد نماذجاً Archetype أزلية للموجودات ذات طبيعة إلهية[1].

وهكذا يختلف نوعى الإنتباه فالأول انتباه مرتبط بالحواس والفكر معاً، يعمل على الربط بين الإحساسات بغرض إعادة بناء قوى النفس وملكاتها منذ البداية، وخاصة فى حالة فراغ الذهن من أى أفكار، فارتبطت هذه الطريقة بالصورة المنطقية كما عرفها البعض، كما نتجت عنها لغة الحركة، وهي لغة فطرية تنجم عن الإشارات المرتبة التى تسهم فى النظام، وهى تتكون من الأصوات أو الإشارات التى ترتبط بالأفكار التى نكررها. فى حين يصبح الانتباه عند مالبرانش منغمساً فى الإلهام الذى يستمد معارفه من الله مباشرة بإشراق حضورى، ودفعة واحدة ولا حاجة به إلى منطق أو إستدلال، وهنا ترتبط عن كثب بالله وإن كان كونديلاك لم يشر صراحة إلى وجود الله فى بداية "دراسة فى الإحساسات"، وإن كان قد اعتبر أن قوانين الحركة

---

(1) Malebranche, Nicolas de: La Recherche de la verite tome.II, Ernest Flammarion Editeur 1753 p 365.

فى الإحساسات مجهولة، ولا يعرف منها غير تلك التى تتحكم فى الحيوان خاصة فى مروره من مرحلة النمو إلى مرحلة الإحساس بيد أن منطوق مذهبه –خاصة وأنه لم يغفل تأثير اللاهوت عليه منذ البداية- إنما يظهر فى مذهبه من بين السطور فاعترافه الضمنى بوجود الله، وتأثيره على المعرفة يبرز من خلال إشارته إلى الإشارات المرتبة، ولغة الحركة التى هي لغة فطرية غريزية، وهو إن لم يذكر وجود الله من ورائها صراحة إلا أنه يشير بطرف خفى إلى ذلك الوجود، كما أن يشير إليه بصراحة حين يبحث عن مصدر أفكارنا الأخلاقية فيرى أنها تصدر عن الحواس بفعل القانون الطبيعى الذى خلقه الله ووضعه فينا قبل الخليقة فأخضعنا له، كما جعل مصدره الإرادة، ونحن نتلمس هذا القانون فى أنفسنا بما نحسه من تأثير على حاجتنا ولذاتنا وآلامنا مما يشهد بمقدار احتياجنا لمساعدة الله، وفى هذا النطاق تتبلور الأخلاق فى القوانين التى تشرع الممنوع والمسموح، واكتمال الأخلاق بهذه القوانين يكون بمثابة الارتفاع بالمعرفة إلى الله مصدر تشريعاتنا، وواهبنا جميع القوى للقيام بواجباتنا تجاه خالقنا وحافظنا.

أما تأثير باركلى على كوندياك فقد جاء عكسياً إذ ذهب لتفادى مثاليته اللامادية فكتب "دراسة فى الإحساسات" من منطق فلسفة بيركلى التى تذهب إلى أننا لا نرى إلا ما يدور فى داخلنا حتى نصل إلى مفهوم حقيقة العالم الخارجى، فى حين كانت الإحساسات كما عبر عنها هو فى كتاب "المقال" تبدو فى شكل صور للأشياء، وقد بين لنا كوندياك أن حاسة اللمس هى الحاسة الوحيدة القادرة على إعطاء مفهوم حقيقة الأجسام، كما وجد نفسه مضطراً إلى القول بضرورة تدريب الحواس الأخرى التى لا تستطيع أن تحكم بذاتها على

الأشياء الخارجية بواسطة اللمس فى حين أغفل هذه الفكرة فى كتابه "المقال" أما فى الطبعة الثانية لكتابه "دراسة فى الإحساسات" فقد اعتبر حاسة اللمس هى إحدى حالات الذات طالما بقى الجسم ثابتاً فى مكانه، ويفسر كوندياك وجهة نظره مؤكداً أن اللمس النشيط فقط هو الذى يوجد مفهوم ما هو خارجى، وحركة اليد وحدها من مجموع ما يمكن للجسم تحريكه هى التى تجعل الإنسان يحس ويشعر أن هناك خارج نطاق ومحيط جسمه امتدادات لعناصر هى فى ذاتها امتداداً لأشياء أخرى.

وخلاصة الأمر أن هناك امتداد، أو فى كلمة واحدة هناك أجسام. وفضلاً عن تأثر كوندياك بجميع هؤلاء فقد كان لمدموازيل فيران وديدرو أثراً لا يدحض على أفكاره خاصة فى الإحساسات، وفرض التمثال على وجه الخصوص. وكان الأخير قد تعرض لفكرة مماثلة فى رسالته عن الصم والبكم عام 1751 وهى تجزئة الجسم لمعرفته عن قرب.

كما كان لبوفون أثر خاصة فى تصوره عن الإنسان باعتباره من صنع يد الطبيعة، وكذلك الفيلسوف الفرنسى شارل بونيه فى نفس الفكرة.

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد أثر علم النفس الحديث، فقد بين أن ما نعتقده فطرياً هو فى واقع الأمر مكتسب، وأن ما نعتقده بسيطاً هو فى الحقيقة معقد ومركب، ذلك لإهمالنا وإغفالنا لكيفية تحققه. وبالإضافة إلى هذه المؤثرات كان لأسلوب روسو أثر كذلك على فرض التمثال عنده، وكان قد افترض وجود صورة اجتماعية معينة من

إعادة بناء حالة إجتماعية مثالية، كما أثرَّ المنطق فى صياغته لفرضه كذلك، فأصبح منهجه ثقافياً عندما أعاد بناء قدرات النفس وملكاتها منذ البداية، وخاصة فى تلك الحالة التى يكون الذهن فيها خالياً من أى نوع من الأفكار، وقد عرف ديلبو Delbos هذه الطريقة باسم الصورة المنطقية Panlogisme. وفضلاً عن الآثار الملموسة للفكر الفرنسى العقلى على كوندياك إذا استثنينا من ذلك فلسفة بيركلى التى كانت تمثل شأنها شأن فلسفة كوندياك خروجاً على قاعدة الفكر الإنجليزى التجريبى باتباعها للفكر المثالى اللامادي نجد أن كوندياك يتابع الفلسفة الإنجليزية التجريبية بكل حواسه منذ أن عرفت فى فرنسا من خلال كتابات الفلاسفة الموسوعيين.

أما عن لوك، فمن ينكر أثر لوك على كوندياك؟! لقد بدأ الأخير من تجريبيته ثم غالى فيها إلى حد كبير أرجع معه مصدر المعرفة إلى الإحساسات، وكذلك كان للنزعة العلمية لنيوتن أبلغ الأثر عليه إلى حد أنه أخذ يمجد ويعظم من شأن كل من لوك ونيوتن فى نصوصه الخاصة بالمنطق وفلسفة العلوم، وفى ضوء التأثير العلمى والتجريبى لم يفلت (كوندياك الفرنسى) من أثر منجزات العلم فى القارة الأوروبية.

أما موقف كوندياك من الميتافيزيقا فلا يخرج فى كثير أو قليل عن موقف الفلاسفة التجريبيين، فكل من اتجه إلى المذهب الحسى نفى الميتافيزيقا فهذا هو دافيد هيوم يعتبر الميتافيزيقا أحلام، أما كانت فيعتبرها أحلام ثائر، ويقبل ميتافيزيقا الظواهر التى تؤسس عالم الظواهر- وهو نفس موقف كوندياك- ومعنى ذلك أنها ميتافيزيقا تحترم الحس والمحسوس ثم ترى ما وراءهما عن طريق الاستدلال واضع هذا النظام المحسوس.

والحق أن النظرة إلى الميتافيزيقا قد تغيرت فى العصر الحديث، فكان المقصود بها هو العالم الخفى أو الميتافيزيقا الخفية على حد قول كوندياك- فهى ميتافيزيقا تنظر إلى ما وراء العالم الطبيعى المحسوس، وقد اكتشف أفلاطون وأرسطو العالم المحسوس، لكن أفلاطون فصل بينه وبين العالم المعقول، وجعل له الأصالة وراء العالم المحسوس ثم فصله عن هذا العالم، وجعل له استقلاله كعالم عقلى هو محتوى النماذج الأصلية أى المثل للموجودات. فنحن هنا أمام ميتافيزيقا كاملة عند أفلاطون.

ولقد تدرج أرسطو من العالم المحسوس معترفاً بوجوده مؤكداً على حقيقته وواقعيته، ثم حاول البحث عن الأصول والمبادئ التى ينتمى إليها هذا العالم المحسوس متسلسلاً من الحركة، ومن المعقولية التى أخذت صورتها من هذا العالم، فكأن ثمة ربط لا فكاك له بين العالمين المحسوس والمعقول، أى الميتافيزيقى عند أرسطو. لهذا جاءت الفلسفة الأرسطية مؤسسة على احترام شهادة الحس والمحسوس واعتبار شرعيتها الحقيقة فى مجال النظر الفلسفى.

وظهرت الفلسفة عند ديكارت تحمل طابع العقلانية والتصورية فألقت ظلالاً على العالم المحسوس، بل وشككت فى كل ما هو حسى، وكان هذا هو موقف العقلانيين والمثاليين من العالم المحسوس حيث أصبحت الميتافيزيقا هى الشجرة الأساسية فى حين تمثل بقية العلوم جزعها وفروعها على حد قول ديكارت فى مبادئ الفلسفة.

لكن هذا الاتجاه العقلى الميتافيزيقي ما لبث أن وُضع موضع النقد فى المدرسة الحسية الإنجليزية عند لوك وهيوم وبانتام ومل فقد

رأى أتباع هذه المدرسة أن العالم الحسى هو جوهر الحقيقة، وأن المحسوسات هى الأسس الأولى للمعرفة، وليس هناك أى حامل ميتافيزيقى للظواهر الحسية، بل إن العالم المحسوس قائم بصفاته المحسوسة معزولاً عن الأصول الميتافيزيقية. فأصبحت الميتافيزيقا وهماً كبيراً عند هيوم.

أما كانت فقد قبل ميتافيزيقا الظواهر، التى اعتبرها مصدر أفكارنا عن الوجود فأصبحت الميتافيزيقا عنده هى ميتافيزيقا الظواهر التى تؤسس عالم الزمان والمكان بداية من الحساسية الصورية حيث تنتظم الآثار الحسية لصيغتى الزمان والمكان ثم يتكون موضوع الإحساس بمساهمة من العقل النقدى، وتطبيق للمقولات عن الموضوعات التى انتظمت بها الآثار الحسية، فكأن ثمة مشاركة بين ذهن العارف، وما يأتى من خارج من تاثيرات حسية وهذا هو الضرب من الميتافيزيقا الذى يقبله كانت، إنه ميتافيزيقا الظواهر القائمة على الربط بين تأثيرات آتية من الخارج لكى يكتمل بناء موضوع المعرفة. ويبدو أن كوندياك وأصحاب مذهب الظواهر قد استمدوا وغيرهم ممن هم على دربهم- قد استمدوا- اتجاههم الميتافيزيقى من هذا الإتجاه الكانطى النقدى، فثمة ميتافيزيقا متواضعة وليست متعالية عند هؤلاء جميعاً مع أنها تتجاوز تجارب الحس والمحسوس لتصعد لا إلى مبادئ ميتافيزيقية مجردة خالصة بل إلى عوامل للربط بين هذه المحسوسات نفسها، فأتباع منهج الظواهر إذن يعلقون الحكم على موضوعات الميتافيزيقا المجردة كما يفعل مذهب الحساب الجزئى. ولكنهم لا يتطرقون من هذا الإنكار للمبادئ الميتافيزيقية إلى القول بمثل ما قال به كانت، لأنهم يرون أن التجربة نفسها هى التى تعطينا التأكيد بأن هناك تأسيساً للظواهر الحسية التى تبدو لنا من خلال إحساساتنا لتكون موضوعاً

معيناً. وهذا هو نسق فينومنولوجيا الظواهر، ونسق الاحتفاظ بالوجود الإلهى، ووجود عالم السماء عند كوندياك.

على هذا النحو الذى عرضنا فيه لميتافيزيقا الظواهر يتضح لنا مبلغ تأثر كوندياك بروح العصر، وتعبير نسقه عنها خير تعبير.

لقد كان مدار البحث فى القرن الثامن عشر ينصب على التجربة والاختراع، وفى ظله استطاع كوندياك أن يهتم بالتطور- متأثراً بداروين- كما يهتم بتحليل الظروف والمواقف الخاصة إنطلاقاً من القانون العام للتاريخ، كما اهتم بالاكتشافات العلمية والمنهج العلمى متأثراً بروح كل من لوك ونيوتن واستفاد منهما فى تعميمه لمفهوم المنهج، فيرى أنه يكفى للوصول إلى اكتشافات جديدة لأن يفكر المرء فى الاكتشافات التى تمت بالفعل. وهو يتفق مع دالمبير على أن طريق المنهج والحقيقة كان ممهداً أمام فلاسفة وعلماء العصر، ولقد وجد كوندياك أن مبدأ ملاحظة الطبيعة هو البداية التى تفتح طريق الحقيقة على مصراعيه.

ولقد حظى فن التفكير والاستدلال بأفضل تقدم له فى القرنين السابع والثامن عشر حيث يرجع المنهج الحقيقى إلى هذين القرنين، وحيث تتكون الأفكار بطريقة طبيعية وتتحدد بدون صعوبة وتعد الرياضيات مثالاً على ذلك.

لقد بحث كوندياك فى كيفية إيجاد طرق "مناهج" لعمل اكتشافات جديدة إنطاقاً من الاكتشاف الموجودة، وتجنب الطرق التى من شأنها أن توقع الإنسان فى الخطأ.

وهكذا فقد جاء كوندياك مؤمناً بالملاحظة كما فعل لوك من قبله. فاهتم بتطوير العلوم، كما ركز على الملاحظة والتجربة، وأكمل طريق علم الإدراك والفهم البشرى. كما بدأه لوك. والحق فقد لاقى

مذهب كوندياك الحسى شهرة عريضة ونجاحاً كبيراً فى فرنسا إلى حد أنه حل محل الديكارتية فى شهرتها ونجاحها ، بيد أن آراءه ظلت باقية ومؤثرة فى المجتمع الإنجليزى عنها فى فرنسا يشهد بذلك ما تركته من آثار على مذهبى جيمس مل Mill (James) (1773-1836)[1] وهربرت سبنسر Spencer (Herbert) (1820-1903).[2]

(1) حاول مل فى كتابه "تحليل ظاهرة العقل الإنسانى" الذى ظهر عام 1829 أن يبرز أن المعرفة يمكن أن ترجع برمتها إلى المشاعر (الإحساسات) والأفكار والملذات والآلام.

(2) نال كتاب سبنسر "مذهب الفلسفة التركيبية" شهرة واسعة فى نهاية القرن التاسع عشر بعد أن استعرض فيه فلسفته فى ضوء عرض العلوم البيولوجية والاجتماعية من خلال التطور باعتباره الفكرة التى تجمع العلوم برمتها فى وحدة، وقد تأثر مذهبه بعلم الأحياء لداروين وبالمناهج التى كانت تسعى لتطوير العلوم الاجتماعية.